■ الباب الثالث

ابن البلد

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

كان مظهري يشبه منظر « ليل أبْتَر » وكأنما كلمة « من بلدة ميسون، ميشجان » مكتوبة على وجهي. كان شعري الأحمر الأجعد مقصوصاً بطريقة ريفية مع أنني لم أكن أدهنه كما كانت يدا حلتي الخضراء تتدليان فوق رسغي وجواربي بادية للعيان من تحت بنطالي ومعطفي ذو الياقة الضيقة واللون الأخضر الباهت من فوقي. لم تحتمل حتى إللا مظهري ولكنها أخبرتني أن منظر بعض أقاربي عند حضورهم من ولاية جورجيا كان أسوأ من منظري.

جهزت لي إللا غرفة ملائمة في الطابق الأعلى ومثل أي امرأة زنجية من ولاية جورجيا هرعت إلى المطبخ للطناجر والمقلاة . كانت من نوع الطهاة الذي يملأ طبقك بشرائح الخنزير، والخضار والبازلاء والسمك المشوي والكرنب والبطاطا الحلوة والبرغل والصلصة وخبز الذرة، وكلما أكلت أكثر كلما أرضيتها أكثر. أكلت من مائدة إللا وكأنما كان ذلك آخر يوم للأكل.

كانت إللا ما زالت هي المرأة السوداء الضخمة الفصيحة المدهشة التي رأيتها في ميسون، ميشجان وكانت قد انفصلت قبل أسبوعين من زوجها الثاني – الجندي فرانك – الذي سبق وقابلته هنالك في الصيف السابق ومع ذلك فقد تحملت ذلك الانفصال بروح طيبة. بدا واضحاً لي مع ذلك أنه من الصعب لأي رجل عادي أن يعيش معها مدة طويلة إذ أنها كانت من النوع الذي يحب غريزياً أن يسيطر على كل شيء وكل شخص في حياتها بمن فيهم أنا. أخبرتني في اليوم الثاني لي في روكسبري

أنها لا تريد لي أن أبدأ البحث عن عمل فوراً مثلما يفعل كثير من الزنوج القادمين الجُدُد . قالت لي: إنها دائماً تحث القادمين الذين أحضرتهم هي للشمال أن يتمهلوا ويطوفوا بالبلد وأن يركبوا الحافلات والمترو حتى يتعرفوا على مدينة بوسطن قبل أن يربطوا أنفسهم بعمل في مكان ما لأنهم لن يجدوا فرصة أخرى ليعرفوا أي شيء عن البلد الذي فيه سيقيمون . وعدتني إلا أنها ستساعدني في العثور على عمل حينما يكون الوقت ملائماً .

وهكذا بدأت أتجول في المنطقة – في شوارع وومبك وهمبولت في حي روكسبري الذي يشبه منطقة شوجر هيل في هارلم والتي سأقيم فيها في مستقبل الأيام. رأيت زنوج روكسبري يعيشون ويسلكون بطرائق جد مختلفة عن أي زنوج رأيت في حياتي قبلاً . كانت هذه منطقة زنوج يسمون أنفسهم « الأربعمائة » ويحتقرون زنوج «الجيتو» أو ما يسمون بزنوج وسط البلد حيث كانت تعيش ماري، أختي غير الشقيقة.

كنت أظن أنني أمام زنوج من الطبقة العليا، متعلمين ومهمين، يعيشون في نعمة ويعملون في وظائف كبيرة، ويسكنون بيوتاً بها حدائق أمامية مشذبة. كانوا يمشون على قارعة الطريق في خيلاء وزهو وهم في طريقهم للعمل أو الكنيسة أو إلى السوق أو الزيارة. أدرك الآن أن من كنت أشاهدهم ليسوا إلا نسخة مدينة بوسطن من ماسحي الأحذية وعمال النظافة في لانسنج. كل الفرق بينهم أن عقول زنوج بوسطن كانت قد غسلت تماماً. كانوا يباهون أنهم أكثر « ثقافة » و « تحضراً » و« احتراماً » وأفضل من إخوانهم السود في الجيتو الذي كان على مرمى حجر من حيهم. بهذا الفهم المؤسف كانوا يجهدون أنفسهم في محاكاة البيض ظناً منهم أن ذلك يجعل منهم بشراً أفضل.

كانت أي عائلة بقيت في بوسطن مدة كافية تمكنت معها من امتلاك المنزل الذي تقطنه، تعد من نخبة الجبل (منطقة روكسبري) ولا يهم إذا كانت تلك العائلة تؤجر بعض غرف المنزل الذي تسكنه لأنها تحتاج إلى دخل إضافي فوق دخلها. أما المولودون في نيو إنجلاند من بينهم فكانوا ينظرون باستعلاء إلى المهاجرين الجدد الذين يجاورونهم مثل إلا وكان عدد كبير من سكان تلك المنطقة من النوع الأخير – جنوبيين متسلقين مثابرين وآخرين من جزر الهند الغربية يسمون « باليهود السود » من جانب الجنوبيين ومواليد نيو إنجلاند. عامة يمتلك الجنوبيون وأهل جزر الهند الغربية أكثر من منزل يسكنون في واحد ويؤجرون الآخر. بينما زنوج نيو إنجلاند المتحذلقون يملكون أقل من ذلك في المتوسط.

في تلك الأيام في حارة الجبل في روكسبري كان كل المهنيين من مدرسين

ووعاظ وممرضات يعتبرون أنفسهم الأحسن. كان سعاة البريد والحمالون ونادلوا عربة (السناطور) في القطار من الزنوج يمشون في الشوارع وكأنما هم دبلوماسيون بقبعاتهم العالية وبذلاتهم المفتوحة. في ظني أن ثمانية من كل عشرة من حارة الجبل في روكسبري كانوا إما خدماً أو عمالاً يدويين بالرغم من مظهرهم الباهر. كان الواحد منهم يقول إنه « يعمل بالبنوك » أو يعمل في « السندات » وكأنما هو روكفلر أو ميلون وليس مجرد عامل نظافة في بنك يتمخطر في حلة العمل الرسمية أو ساعي في شركة سندات. « أنا مع عائلة كبيرة » ذلك ما كان يقوله من يعمل طباخاً أو خادماً منزلياً بلكنة مصطنعة لا تكاد تفهمها. لا أستطيع أن أحصي عدد من هم فوق الأربعين أو فوق الخمسين الذين يعملون سعاة ولكنهم يتأنقون بالبذلات السوداء والياقات البيضاء وكأنما هم سفراء ويقصدون أماكن عملهم في « الدولة» أو في « دنيا المال » أو في « المحاكم ». كنت وما زلت أندهش للزنوج الذين يتحملون خداع النفس والإساءة إليها بهذه الدرجة.

بعد فترة قصيرة بدأت أخرج من روكسبري لأستكشف مدينة بوسطن نفسها. مبان تاريخية في كل مكان وأحجار تذكارية وأسواق وتماثيل لمشاهير الرجال والأحداث. تمثال معين في ميدان بوسطن أدهشني: ذلكم هو تمثال لزنجي يدعى كِرِسْبَسْ أطاكاس والذي كان أول شهيد في مذبحة بوسطن في حرب الاستقلال. لم أكن سمعت عن أي شيء مثل ذلك من قبل أبداً.

تجولت في كل مكان. وفي إحدى المرات ذهبت حتى جامعة بوسطن وفي مرة أخرى ركبت مترو الأنفاق لأول مرة وحينما خرج أغلب الركاب تبعتهم . كانت تلك كامبردج وفيها قمت بجولة حول جامعة هارفارد التي كنت قد سمعت بها في مكان ما لكني لم أكن أعرف عنها كثيراً. لم يكن أحد يعلم في ذلك اليوم أنني بعد عشرين سنة منه سأخاطب طلاب كلية القانون بجامعة هارفارد.

كذلك قمت بجولات استكشافية كثيرة في وسط البلد. لم أفهم لماذا تحتاج أي مدينة إلى محطتين ضخمتين للسكة الحديد – المحطة الشمالية والمحطة الجنوبية في كلا المحطتين وقفت أتفرج على الناس تروح وتغدو كما فعلت نفس الشيء في محطة الياص التي قابلتني فيها إللا. كذلك قادتني قدماي إلى الميناء حيث أحواض السفن والأرصفة وهناك قرأت اللوحات التذكارية عن السفن الشراعية القديمة التي كانت تزور ذلك الميناء.

وصفت كل ذلك في خطاب إلى ولفرد وهيلدا وفلبرت وريجنالد ووصفت لهم الطرق الضيقة الملتوية المرصوفة بالحجارة والبيوت المتلاصقة . قلت لهم إن في وسط البلد في بوسطن متاجر لم أر أكبر منها وحكيت لهم عن مطاعم الرجل الأبيض

وفنادقه. ذكرت لهم أنني صممت أن أشاهد كل فيلم يعرض في دور العرض الأنيقة مكيفة الهواء.

في شارع ماساتشوستس وبجوار أحد دور العرض هذه – دار لُوْي ستيت – تقع قاعة روزلاند للرقص الضخمة المثيرة. كانت لوحات الإعلان الكبيرة تعلن عن الفرق القومية الشهيرة – بيضاء وزنجية – التي تقدم عروضها في تلك القاعة . «تحضر الأسبوع القادم » ذلك ما كانت تقوله اللوحة، عن فرقة جلن ميلر. تذكرت كيف كانت أسطوانات تلك الفرقة تعزف طول المساء في حفلات الرقص في مدرسة ميسون الثانوية وتساءلت :هل هنالك شيء يأبى أولئك أن يدفعوه لمشاهدة فرقة جلن ميلر تعزف أمامهم ؟ لم أكن أدري كم ستصبح هذه القاعة مألوفة لدي في مستقبل الأيام.

بدأت إللا تقلق عليَّ لأنني حتى وبعد أن شبعت سياحة لم أكن أبقى كثيراً في المنزل. بدأت تلمح لي بأنني يجب أن أختلط بالصبيان الطيبين من عمري الذين كنت أراهم في بقالة تاونسند الصيدلية على بعد مربعين من المنزل وفي بعض الأماكن الأخرى. غير أنني كنت دائماً وقبل أن أحضر إلى بوسطن أنظر إلى الصبيان من عمري وأعاملهم وكأنهم أطفال في عمر أخي ريجنالد وكانوا بدورهم يتطلعون إليّ وكأنما أنا أكبُرُهم بكثير. في لانسنج كنت في نهاية الأسبوع أهرب من صحبة البيض وأبقى مع جوقة الكبار من أصدقاء ولفرد وفلبرت. ومع أنهم كانوا يكبرونني عمراً إلا أن حجمي كان أكبر وكنت أبدو وكأنني أكبر عمراً من معظمهم.

لم أشأ أن أغضب إللا ولكنني بالرغم من نصيحتها كنت أذهب إلى الجيتو (حي الفقراء) . كنت أنجذب طبيعياً إلى عالم البقالات والشقق المفتوحة والمطاعم الرخيصة والحانات وواجهات الكنائس ودكاكين الروبابيكا. لم يكن ذلك الجزء من المدينة أكثر إثارة فحسب، ولكنني كنت أيضاً أشعر بالاسترخاء الذهني وسط الزنوج العاديين غير المتكلفين. وبالرغم من أنني كنت أسكن في منطقة الجبل إلا أنني لم أشعر أبداً أنني أفضل من الزنوج الآخرين.

قضيت شهري الأول في المدينة فاغراً فاهي دوماً من الاستغراب وسلب لبي الشبان المتأنقون الذين يوجدون دوماً في قاعات البلياردو والحانات والمطاعم والذين لا يبدو أنهم يعملون في أي مكان. كنت أستغرب لشعرهم المتموج اللامع مثل شعر البيض وقد أخبرتني إللا أن ذلك يسمى « كُونْك ». لم أكن قد ذقت الخمر من قبل لا ولم أدخن سيجارة وهنا رأيت الأطفال الصغار من الزنوج وأعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة يلعبون الورق ويتشاجرون ويجرون وراء الكبار ليضعوا لهم نكلة أو بريزة في

المراهنات وأشياء مثل ذلك. أما عن لغتهم فحدِّث ولا حرج من كلمات بذيئة وتعبيرات عامية مثل « الفحل » و « القط » و « الفروج» و« الرزين » و « الهب ». وكنت كل ليلة أسترجع هذه الكلمات في ذهني قبل النوم. أما ما صدمني فهو أن أرى وبخلاف ما رأيت في بلدتي فتاة بيضاء مع شاب أسود يتمشيان في المساء على قارعة الطريق وذراعها في ذراعه أو أن أرى ثنائياً من اللونين يحتسيان الخمر في الحانات وتحت الأضواء وليسا مختبئين في ركن المطعم. ذلك من الأشياء التي ذكرتها لفلبرت وولفرد في خطابي لهما.

أردت أن أجد لنفسي عملاً مفاجأة لألا وبعد ظهر أحد الأيام حدثتني نفسي أن أدخل في إحدى قاعات البلياردو التي كنت أحملق فيها من الخارج . كنت أمر بها كثيراً وأنظر من خلال زجاج النوافذ ولم أكن مشتاقاً للعب البلياردو إذ أنني حقيقة لم أحمل عصاتها مطلقاً من قبل. لكن ما جذبني إليها كان منظر «القططة» الذين تبدو عليهم الثقة بالنفس وهم يقفون حول الطاولات الخضراء والبيضاء يتراهنون ويضربون الكرات اللامعة الملونة في الثقوب المعدة لذلك. كنت واقفاً أحدق من خلال الزجاج في إحدى المرات بعد الظهر حينما قررت أن أغامر وأدخل لأتكلم إلى شخص سمين داكن البشرة مكوي الشعر رأيته يعد الكرات للاعبين وسمعتهم ينادونه بشورتي (القصير) وكان قبل ذلك بزمن رآني في الخارج وحياني «هالو ، رِدْ » مما جعلني أعتقد أنه شخص ودود.

تسللت إلى الداخل بدون جلبة وبعيداً عن الجانب الذي توجد فيه طاولة البلياردو متحاشياً الناس وقاصداً الخلف حيث كان شورتي يقف حاملاً علبة ألمنيوم بها المسحوق الذي يمسح به اللاعبون أيديهم. رفع شورتي رأسه ونظر إليّ. في المستقبل كان شورتي يقول مازحًا :كيف أنه من أول نظرة عرف قصة حياتي قائلاً وهو يضحك :« يا صاح، لقد كانت البداوة تشتم من ذلك القط ! » وكيف أن أرجلي كانت طويلة جداً وبنطالي قصير إلى درجة أن ركبي كانت بادية بينما شعري كرقعة من شعر كلب أسود ضخم.

لم يشعرني شورتي تلك الليلة بأن مظهري بدوي عندما قلت له أن يدلني كيف أعثر على عمل من نفس النوع.

« إذا كنت تقصد رص الكرات، فلست أعلم عن مكان هنا يحتاج إلى عمال. هل تبحث عن أي استرقاق (عمل) تجده ؟! » سألني عن خبرتي فأجبته أنني غسلت الأطباق في ميسون، ميشجان. كادت علبة المسحوق أن تسقط من يده وهو يقول : «يا بن بلدي ! يا صاح، ارفع قناعك. أنا من لانسنج أيضاً».

لم أخبر شورتي أبداً كما أنه لم يشك إطلاقاً أنه يكبرني بعدة سنوات إذ أنه افترض أننا متقاربان عمراً. في البداية كنت سأشعر ببعض الحرج لإخباره وبعد ذلك لم أعد أهتم. ترك شورتي المدرسة بعد السنة الأولى الثانوية في لانسنج وعاش لفترة مع عم وعمة له في ديترويت كما أن له الآن ست سنوات في روكسبري لكنه تذكر كثيراً من أسماء الأشخاص والأماكن في لانسنج التي ذكرتها له وبعد مدة بدا وكأننا ترعرعنا في نفس الحي. كنت أشعر بسروره لملاقاتي ومن جانبي لا أحتاج أن أقول :إنني شعرت بأنني محظوظ لمصادفة شخص متفتح مثلما كان يبدو على شورتي.

« يا صاح ، هذه مدينة مبهجة إذا عرفتها وأنت ابن بلدي، سأعلمك أشياء كثيرة مما يجري هنا .» قال شورتي لي ذلك وأنا أقف وعلى وجهي ابتسامة بلهاء. « هل أنت في طريقك إلى مكان ما الآن ؟ لماذا لا تنتظر حتى ينتهي دوامي ؟ »

شيء واحد حببني في شورتي في الحال وذلك هو صراحته. وعندما أخبرته بمكان سكني أخبرني ما كنت أعرفه مسبقاً من أن لا أحد في المدينة يطيق زنوج الجبل ولكنه قال إن أختاً تهيئ لي مكاناً للسكن مجاناً وبدون أن تطلب مني أن أبحث عن عمل لا يمكن أن تكون إنساناً سيئاً. علمت منه أن عمله في قاعة البلياردو إنما كان بهدف إعاشته وهو يتدرب على إتقان عزف البوق وأنه كان قد ربح مالاً في المراهنات قبل عامين واشترى به ساكسفوناً « وهو الآن في الدولاب جاهزاً لدرس الليلة .» كان شورتي يأخذ دروساً مع « فحول » آخرين ويأمل أن تكون له فرقته الصغيرة في يوم من الأيام. « هنالك فرص كثيرة لعمل الخبز(كسب المال) هنا في روكسبري». شرح لي شورتي طموحه قائلاً: « إنني لا أحب الانضمام إلى فرقة كبيرة لأنفخ طول الليل كي يقال إنني كنت مع كاونت باسي أو الدوق أو أي شخص. » قلت لنفسي إن ذلك تفكير سليم وتمنيت لو أنني كنت تدربت على عزف البوق ولكنني لم أكن تعرضت إلى ذلك أبداً من قبل.

قضيت كل الوقت بعد الظهر وأنا استمع إلى شورتي يحدثني بين جولاته وهو يرص الكرات متحدثاً من زاوية فمه يخبرني: مَن من المقامرين الواقفين حول الطاولة أو اللاعبين كان يبيع لفات المخدرات وأيهم خرج لتوه من السجن وأيهم كان من رجال الصف الثاني. أخبرني أيضاً أنه يقامر بدولار يومياً على الأقل في المراهنات وأنه حينما يكسب مبلغاً كبيراً سيستخدمه لإنشاء فرقته. شعرت بالخجل عندما اضطررت للاعتراف بأنني لم أقامر أبداً في المراهنات فعذرني شورتي قائلاً : « ذلك لأنك لم تكن تملك ما تقامر به ويمكنك أن تبدأ عندما تجد

عملاً وإذا كسبت فستكون لديك جائزة. »

أشار شورتي إلى بعض المقامرين والقوادين الذين كانت مع بعضهم مومس بيضاء ثم همس : « لا أكذبك فأنا أعجب بهؤلاء المومسات البيضاوات اللائي تتقاضى الواحدة منهن دولارين. هنالك نشاط كبير هنا وسترى.» أجبت بأنني رأيت بعضهن ثم سألني : « هل قضيت وطرك مع واحدة منهن ؟ »

شعرت بالخجل من عدم درايتي وهي تتكشف وهنا قال شورتي : « لا عليك يا رجل ولا تشعر بالحرج . لقد تمكنت أنا من بعضهن قبل أن أترك لانسنج – هل تذكر البولونيات اللائي كن يعبرن الجسر ؟ أما هنا فأغلبهن من أصل إيطالي وإيرلندي ولكن أصلهن لا يهم فهن شيء جد مختلف وليس هنالك شيء يحببن أكثر من فحل أسود».

طوال تلك الفترة كان شورتي يقدمني إلى العازفين والزبائن ويقول : « إنه ابن بلدي وهو يبحث عن عمل إذا كنت تعرف عن أي عمل.» وكلهم كانوا يردون بأنهم سيتذكرون ذلك.

في الساعة السابعة أتى ميعاد ذهابه وأخبرني أنه مستعجل لكي يذهب إلى درس الساكسفون ولكنه قبل أن يغادر مد لي يده وبها ستة أو سبعة الدولارات التي جمعها ذاك اليوم من البقشيش قائلاً : « هل معك خبز كاف، يا بن البلد ؟ » أخبرته أنني بخير وأن معي دولارين ولكنه أصر أن آخذ منه ثلاثة أخرى : « دعها تنفخ جيبك قليلاً.» قبل أن يترك شورتي المكان فتح حقيبة الساكسفون وأراني البوق الذي كان من نحاس لامع يرقد على مخمل أخضر من النوع الذي يسمى ألتو ساكس. « ابق ساكناً يا بن بلدي وعد إلى هنا غداً . بعض هؤلاء القطط سيجد لك عملاً».

عند وصولي البيت أخبرتني إللا أن شخصاً يدعى شورتي اتصل هاتفيًا وترك لي رسالة فحواها أن ماسح الأحذية في قاعة روزلاند ستيت للرقص سيترك العمل تلك الليلة وأن شورتي أخبره أن يحتفظ بالوظيفة لي.

« مالكوم، إنك عديم الخبرة في مسح الأحذية » ، قالت إللا ذلك وكان واضحاً من نبرة صوتها والتعبير الذي على وجهها أنها لا تريدني أن أقبل ذلك العمل . أما أنا فلم أكن مهتماً بما تقول إذ أنني كنت صامتاً أفكر في أنني سأكون على مقربة من أعظم الفرق الموسيقية في العالم. لم أنتظر ولا حتى لتناول طعام العشاء.

كانت قاعة الرقص تسبح في الأضواء عندما وصلت وكان رجل الباب يفسح الطريق لأعضاء فرقة بني جودمان عندما أخبرته أنني أود مقابلة فِردِي، ماسح

الأحذية . سألني: « أنت ماسح الأحذية الجديد ؟ » قلت :له أظن ذلك فضحك وقال: « ربما تكسب أنت في المراهنات وتشتري كاديلاكاً أيضاً. » أخبرني أنني سأجد فردي في غرفة الرجال في الطابق الثاني.

قبل أن أصعد إلى الطابق الأعلى تقدمت داخل القاعة لأسرق نظرة ولم أصدق كبر حجم تلك الأرضية الملمعة بالشمع . في الطرف الآخر وتحت الأضواء الهادئة كان المسرح وعليه موسيقيو فرقة بني جودمان يتحركون ويضحكون ويتكلمون وهم يجهزون آلاتهم ومنصاتها.

حياني في الطابق الأعلى شخص أسمر نحيف شعره مكوي قائلاً : « أنت بلديات شورتي ؟ » أجبته بالإيجاب فعرفني بنفسه قائلاً أنه فردي. « يا له من ولد طيب ! لقد اتصل بي حالماً عرف أنني كسبت في المراهنات وقدر صائباً أنني سأترك العمل.» أخبرت فردي بما قاله لي رجل الباب عن الكاديلاك فضحك فردي وقال : « هؤلاء القطط البيض يغلون عندما يعلمون أن واحداً منا قد وجد لنفسه شيئاً . سأشتري كاديلاكاً وذلك فقط لإغاظتهم. »

بعد ذلك نصحني فردي أن أكون واعياً وأخبرني أنه سيكون مشغولاً وأن علىّ أن أبقى وأراقب ولكن بدون تدخل وأنه سيحاول أن يهيئني للوظيفة حتى أستلمها بعد حفلة الرقص القادمة أي بعد ليلتين. وبينما فردي مشغول بتهيئة منصة الأحذية قال لي : « أحضر إلى هنا مبكراً ... ضع الفرشاة وخرق المسح من هذا الجانب ... قوارير الطلاء والشمع والفرشاة الجلدية من هنا ... كل شيء في مكانه. فالعمل هنا مستعجل وعليك الاقتصاد في الحركة».

وأنا أمسح الأحذية تعلمت أن أراقب الزبائن وهم يدخلون غرفة المرحاض وأهرول إلى هنالك وأقدم لهم منشفة بيضاء صغيرة.

« كثير من هؤلاء القطط لا ينوون غسل أيديهم ولكنهم يخجلون من أنفسهم عندما تقدم لهم المنشفة. فلتعلم أن منشفتك هي أهم أدواتك فغسلها يكلفك بنساً واحداً بينما قد تحصل على ٥ بنسات بقشيش على الأقل . أيضاً أنفض الغبار عنهم وعن الزبائن الذين تمسح أحذيتهم وسيعطونك شيئاً. كذلك مثل دور العم توم (الزنجي المنافق) قليلاً فهؤلاء البيض يحبون ذلك وسيجزلون لك العطاء إن فعلت . لقد رأيت بعضهم يعود أكثر من مرة من أجل ذلك.»

من القاعة بالأسفل بدأ صوت الموسيقى يتسلل إلينا ويبدو أن الانبهار ظهر على وجهي لأن فردي سألني : « ألم تر حفلاً كبيراً راقصاً من قبل ؟ أدخل وتفرج حيناً.» كان هنالك قليل من الأجواز يرقصون تحت الأضواء البنفسجية لكن الجمهور كان أكثر شيء بهرني . كان هنالك أكبر عدد من السيدات البيضاوات الفاتنات

رأيته في حياتي – الصغار، الكبار، ورجال بيض يشترون التذاكر من الشباك ويحشرون حزماً خضراء من البنكنوت في جيوبهم، يناولون معاطف نسائهم للنادل، ثم يأخذون نسائهم من أيديهن إلى الداخل. عندما عدت إلى الطابق الأعلى وجدت بعض الزبائن المبكرين عند فرِدي وبدا لي فرِدي وهو يمسح الأحذية ويرمي إليّ بالمنشفة وكأنما كان يقوم بأربعة أشياء في آن واحد . «هنا خذ منفضة الغبار وتذكر ، مجرد هزتين خفيفتين أو ثلاث لكن تأكد أنهم أحسوا بها.» وعندما هدأت الأمور بعض الشيء قال فرِدي : « إنك لم تر شيئاً بعد . انتظر حتى ترى رقصة الشبح ، ياه، سيرقصها بنو جنسنا.» كان فرِدي لا يدع فرصة تفوت وهو يعلمني. «هنا أربطة للأحذية هدية مني إليك بما أنك مبتدئ. اشتر الربطة بنكلة وذكرهم إن كانوا يحتاجون لرباط وبع لهم الواحد ببنسين.»

كل أسطوانة سمعتها لبني جودمان من قبل كان صوتها يأتينا خافتاً وفي إحدى الاستراحات دعاني فرِدي أن أتسلل لأتفرج. كانت بيجي لي تغني في المايكروفون. يا سلام ! كانت بيجي والتي هي أصلاً من ولاية داكوتا الشمالية ، قد انضمت حديثاً للفرقة وقد اكتشفها بني جودمان عندما كانت تغني مع مجموعة في شيكاغو . ذلك ما سمعت بعض الزبائن يقولون. أكملت بيجي الغناء وانفجر تصفيق الجمهور مدوياً إذ أنها كانت في قمة شعبيتها في ذلك الوقت .

« لقد انبهرت أنا مثلك حينما أتيت هنا لأول مرة » ، قال فرِدي ذلك وهو يبتسم عندما عدت . « ولكن قل لي . هل مسحت أحذية من قبل ؟ » ضحك حينما أخبرته أنني لم أمسح سوى حذائي. « حسناً. دعنا نبدأ فأنا أيضاً لم أفعل ذلك قبل مجيئي إلى هنا.» جلس فرِدي على المقعد وبدأ يمسح حذاءه بنفسه : مسح بالفرشة، بعض الطلاء، مسح ، بعض الدهان ، خرقة التلميع ، ورنيش الك ، وخطوة بخطوة أراني فرِدي ما عليّ أن أفعل.

« ولكن عليك بالسرعة إذ لا ينبغي أن تضيع الوقت.» بدأ فرِدي يوضح لي ذلك مستعينا بحذائي وعندما بدأ العمل يخف أراني فرِدي كيف أجعل صوت الخرقة تفرقع مثل الصاروخ وسألني : « أيروق ذلك لك ؟ » كرر فرِدي التجربة بحركات بطيئة ثم نزلت أنا من على المقعد لأجربها على حذائه فتمكنت منها. « عليك بالسرعة. إن صوتها غريب ، ذلك كل ما في الأمر ولكن هؤلاء القطط يجزلون العطاء حينما يسمعونه فهم يظنون أنك تجهد نفسك لإرضائهم.»

عند نهاية الحفل سمح لي فرِدي بمسح أحذية ثلاثة أو أربعة من السكارى المترنحين الذين أقنعهم بمسح أحذيتهم ثم تدربت على السرعة في حذاء فرِدي حتى صار يلمع كالمرآة . بعد أن انتهى الحفل وبعد أن ساعدنا الفراشين في نظافة قاعة

الرقص من الورق وأعقاب السجائر والزجاج الفارغ ، كان فردي لطيفاً وأخذني إلى بيت إلا في عربته البويك البنية التي سيستبدلها بكاديلاك. كان يتحدث طوال الطريق.« لا أعتقد أن هناك ضرراً من نصحك بأن تحمل معك درزناً من المطاط وتبيع الجوز منها بدولارين. هل لحظت بعض هؤلاء القطط الذين يحضرون إليّ في نهاية الرقص ؟ حسنا ، حينما تكون أمورهم سألكة مع فتاة جديدة سيحضرون إليك ويسألونك عن بعض المطاط . بع الواحدة بدولار وستتحصل على بقشيش إضافي.»

نظر إلى وجهي وقال: « بعض الأشغال الأخرى ليس لديك استعداد لها بعد . سيحضر إليك بعضهم يسأل عن خمر أو لفافة مخدرات ولكن لا عليك منها الآن حتى تعرف من فيهم الشرطي.»

« يمكنك أن تتحصل على عشرة أو اثنى عشر دولار كل ليلة إذا أتقنت أمورك . ما عليك أن تتذكره هو أن كل شيء في الحياة إنما هو سباق . مع السلامة ، يا أحمر.» تلك كانت آخر كلماته في تلك الليلة. في المرة الثانية التي رأيت فيها فردي كنت في وسط البلد ذات ليلة بعد عدة أسابيع من آخر لقاء وكان هو داخل عربته الكاديلاك ذات اللون الرمادي اللؤلؤي والتي كانت تلمع كالمسيمير.

« أنت حتمًا علمتني يا صاح !» قلت ذلك فضحك وهو يدري ما أقصد . لم أقض زمناً طويلاً قبل أن أدرك أن فردي كان بالكاد يمسح الأحذية ويقدم المناشف وأكثر عمله كان بيع الخمر واللفافات وتعريف الرجال البيض بالعاهرات السمراوات . كذلك أدركت أن الفتيات البيضاوات يهرعن إلى مراقص الزنوج ، بعضهن عاهرات أحضرهن قوادوهن بغرض المتعة والعمل وبعضهن حضرن مع أصدقائهن من الفتيان الزنوج وأخريات أتين معهن بحثاً عن المتعة وسط الرجال الزنوج المتلهفين.

في حفلات البيض الراقصة لم يكن مسموحاً ، بالطبع ، للزنوج بالدخول وهنا كان مجال قوادي العاهرات السمراوات حيث يعلمون ماسح الأحذية الجديد كيف يدس رقم هاتف أو عنواناً للبيض الذين يحضرون عند نهاية الحفل يبحثون عن «الفراريج السوداء».

كانت معظم حفلات قاعة روز لاند للبيض فقط وتعزف فيها فرق بيضاء فقط لكن الفرقة البيضاء الوحيدة التي عزفت في حفل رقص زنجي كانت فرقة شارلي بارنت فيما أذكر. حقيقة الأمر أن الفرق البيضاء لم تكن تطفئ عطش الزنوج إلا أن فرقة شارلي بارنت ومعزوفتها « شيروكي» و «رمبا البشرة الحمراء » كانتا تهيجان الزنوج . كانوا يزحمون القاعة والفتيات السمراوات يرتدين فساتين الحرير

وأحذية الساتان وشعورهن منسقة بألف طريقة وطريقة والرجال يلمعون في بذلاتهم الزوتية وشعورهم المكوية« كونك » والجميع يكشرون مدهونين.

كان بعض أعضاء الفرقة يحضر إلى غرفة الرجال في حوالي الثامنة ويمسح حذاءه قبل العمل . (ديوك النجتون، كاونت باسي ، ليونل هامبتون ، كوتي وليامز، جيمي لنصفورد)، تلك أسماء بعض من جلسوا على مقعدي . كنت أجعل خرقة المسح تفرقع كصاروخ صيني. ومازال جوني هودجز، عازف الألتوساكس في فرقة ديوك ومعبود شورتي، مديناً لي بثمن تلميع حذائه . كان على المقعد ذات ليلة يتجاذب أطراف الحديث مع ضارب الدف ، صني جرير، الذي كان واقفاً ، حينما خبطت على قعر حذائه معلنا الانتهاء . نزل هودجز من على المقعد وأدخل يده في جيبه ثم أخرجها وفات ناسياً لي من خلفه . لم أكن أجرؤ على سؤال الرجل الذي فعل ما فعل بمقطوعة « حلم يقظة » أن يدفع خمسة عشر بنساً.

أذكر أنني بدأت حديثاً صغيراً في منصة مسح الأحذية مع جيمي رَشِنْج ، عازف البلوز العظيم في فرقة كاونت باسي (المشهور بمقطوعة « أرسلت في طلبك الأمس، ها أنت تحضرين اليوم» وأشياء أخرى مماثلة). كانت قدما رشنج – فيما أذكر – كبيرتين وشكلهما غريب ، لم تكن طويلة كمعظم الأقدام ولكنها مدورة ومفلطحة كرشنج نفسه. المهم أنه قدم إليَّ بعض قطط فرقة باسي الآخرين مثل (لستر يونج، هاري أديسون ، بضي تيت، دون بياز، ديكي ولز، وبك كليتون) – كانوا حين يدخلون إلى غرفة المرحاض يحيونني بعد ذلك : « هاي، رد ! » ثم يجلسون على مقعد مسح الأحذية وفرقعة صوت خرقة المسح ينطلق في تناسق مع أصوات الموسيقى ورأسي يدور معهما الاثنين . لم يكن لأولئك الموسيقيين معجب من بين ماسحي الأحذية في أي مكان في شدة إعجابي أنا . كتبت عن ذلك لولفرد وهلدا وريجنالد في لانسنج محاولاً وصف ذلك .

لم أكن أحصل على بقشيش محترم إلا بعد أن يكون حفل الزنوج في منتصفه حينما يبدأ الراقصون ينتشون ويزيد كرمهم . كنا بعد حفلات البيض ، ونحن ننظف قاعة الرقص نرمي بعيداً حوالي دستة من الزجاج الفارغ . ولكن بعد حفلات الزنوج كنا نرمي صناديق كاملة ملأى بزجاجات الخمر الفارغة ولم تكن من النوع الرديء بل أجود الأنواع بما فيها الوِسْكي الاسكتلندي.

عندما تهدأ حركة العمل في غرفة الرجال كنت أحياناً أجد لنفسي خمس دقائق أتفرج فيها على الرقص . كان البيض يرقصون وكأنما دربهم أحد على ذلك – يسار ، واحد، اثنين، يمين، ثلاثة، أربعة – نفس الخطوات ونفس النسق وكأنهم ساعة مُلء زنبركها. أما أولئك الزنوج فلا يستطيع أي معلم رقص في العالم

أن يدرب على ذلك الذي كانوا يشعرون به وهم يرقصون. كانوا يخطفون شريكاتهم في الرقص خطفاً بمن فيهن الفتيات البيضاوات اللائي كن يحضرن لمراقص الزنوج . سيستاء مني كثير من أخوتي الزنوج اليوم حينما أقول إن بعض الرجال الزنوج كانوا يكادون يمشون فوق الفتيات الزنجيات وهم يتدافعون نحو الفتيات البيضاوات وكأنهن ملائكة نزلت من السماء . لقد تغيرت الأحوال بالتأكيد وإذا حدث ذلك اليوم فإن أولئك الفتيات الزنجيات لن يتركن أولئك الرجال الزنوج ولا الفتيات البيضاوات من غير توبيخ .

على أية حال، بعض هؤلاء ، الأزواج كانوا ينطلقون تماماً، يندفعون في الجانبين وإلى أعلى ويأتون خطوات وحركات لا تصدق. كنت أكاد أشعر بدوي الطبول في عظامي مع أنني لم أرقص أبداً .

« ساعة الاستعراض» كانت تحل حينما يبدأ الناس في الصراخ في الساعة الأخيرة من الرقص . حينها يبقى في الساحة دزينة من الثنائيات وتغير الفتيات أحذيتهن بأخرى منخفضة من القماش ثم تبدأ الفرقة في تفجير الموسيقى ويلتف البقية في دائرة حول الحلبة وهم يصفقون ويصرخون في انتظار المنافسة لتشتد وكل ذلك في جزء فقط من القاعة. كانت القاعة تشبه سفينة في طريقها إلى الغرق مع كل هؤلاء الموسيقيين والمتفرجين والراقصين والصراخ والتصفيق والرقص ، وكان الضوء يتحول بسرعة إلى بنفسجي، أحمر، أصفر، أخضر، وهو مركز على راقصي اللندي وكأنما بهم مس من جنون . « اندب، يا رجل، اندب ! » وتبدأ الموسيقى وكأنها تندب ثم بعد ذلك يبدأ الراقصون في التساقط مثنى إثر آخر يتعثرون نحو الجمهور منهكين في بحر من العرق. أحياناً كنت وأنا خارج الجمهرة أقفز فوق وتحت في بذلتي الرمادية وفرشاة الغبار في جيبي إلى أن يحضر مدير الدار ويهتف بي أن هنالك بعض الزبائن في إنتظاري .

لا أذكر متى تناولت أول كأس وأول سيجارة ولا حتى أول لفافة قنب ولكني أذكر أن كل هذه الأشياء أتت سويًا مع أول مرة ألعب الورق وأقامر في المراهنات عندما بدأت أختلط بشورتي وجماعته. كان شورتي يضحكنا بمزحاته عن بداوتي وكنت مازلت كذلك – أدرك ذلك الآن – إلا أنني تقبلتها في سرور لأنهم قبلوني كواحد منهم . كنا نجتمع في منزل أحدنا – عادة منزل إحدى الفتيات – وكانت اللفافات تدير رؤوسنا والوسكي يجعلها تنتشي . والكل عرف أن على شعر رأسي أن يبقى لفترة أطول ليطول بما فيه الكفاية قبل أن يكوى . ذات ليلة أخبرت شورتي أنني ادخرت ما يكفي لشراء بذلة زوت .

لم يصدق شورتي أذنيه وصاح : « ادخار ؟ ألم تسمع بالأقساط يا بن البلد ؟ »

أخبرني شورتي أنه سيتصل غداً صباحاً بأحد تجار الأزياء في المنطقة وأن علي أكون هنالك مبكراً . ذهبت وقابلني البائع ، شاب يهودي ، عندما دخلت وقد دهشت لكثرة معارف شورتي . كتب البائع اسمي على ورقة استمارة ومكان عملي وعنواني في منزل إللا ثم كتب اسم شورتي كمزكٍ لي ثم قال : « شورتي واحد من أحسن زبائننا.»

أخذ البائع مقاساتي ثم تناول بذلة زوت من بين البدل المعلقة وكانت بذلة صارخة: بنطال في زرقة السماء يضيق عند الركبة ثم الأرجل وجاكتة ضيقة في الوسط تنزل تحت الركبة . وكهدية أعطاني الرجل حزاماً جلدياً عليه حرف الأول « ل » ثم نصحني أن أشتري قبعة فاشتريت واحدة عليها ريشة مغروزة في شريط عريض . ثم أعطاني هدية أخرى هي سلسلة طويلة وسميكة مطلية بالذهب تدلت إلى ما تحت الركب . منذ تلك اللحظة أصبحت مدمناً للشراء بالتقسيط .

عندما لبست البذلة أمام إللا نظرت إليَّ طويلاً وقالت : « حسناً ، كنت أعلم أن ذلك لابد من أن يحدث.» ذهبت بعد ذلك إلى إحدى ماكينات التصوير الذاتي الرخيصة ووقفت أمامها كأحد هؤلاء الصعاليك الذين يتمخطرون في بذلات الزوت، قبعتي مائلة، ركبي مضمومة وأقدامي منفرجة وأصابعي السبابة تشير إلى الأرض . مثل تلك الوقفة تجعل من الجاكتة الطويلة والسلسل المتدلي والبنطلون البنجابي أكثر درامة . وقعت بإسمي على إحدى الصور وأرسلتها إلى اخوتي في لانسنج ليروا أنني بخير ثم أعطيت واحدة لإللا والثالثة لشورتي الذي هزته تلك اللفتة كما بدا من تعليقه : « شكراً يا ابن بلدي.» كان عدم إبداء العاطفة جزءاً من العرف في سلوكنا.

بعد فترة قصيرة من ذلك قرر شورتي أن شعري كان طويلاً بدرجة كافية لكيه وكان قد وعدني أن يعلمني كيف أتفادى دفع ثلاثة أو أربعة دولارات للحلاق بعمل معجون الكونجولين بنفسي وكي الشعر به.

أخذت قائمة المقادير الصغيرة التي كتبها لي وذهبت إلى دكان البقال حيث اشتريت علبة من محلول القلي ماركة « الشيطان الأحمر» ، بيضتين وقطعتين من البطاطا متوسطتي الحجم . ثم من صيدلية قريبة اشتريت برطماناً كبيراً من الفازلين ، صابونة ، مشطاً كبيراً ، وآخر صغيراً ، أنبوبة بلاستيك طويلة برأس معدني ، مريلة مطاط وقفازات .

سألني صاحب الصيدلية : « هل تنوي كيَّ شعرك كونك لأول مرة ؟» أجبت فخوراً وأنا أبتسم : « تماما».

كان شورتي يدفع ستة دولارات أسبوعيًا كإيجار لغرفة في شقة ابن عم له وكان ابن العم ذلك لا يبقى في الشقة كثيراً . « كأنما هي شقتي فهو يقضي أغلب وقته مع فتاته ، » قال شورتي ذلك ثم طلب مني أن أراقبه. قشر شورتي البطاطا ثم قطعها إلى شرائح صغيرة في جرة فواكه فارغة ثم بدأ يمزجها بملعقة خشبية ثم صب تدريجياً نصف علبة محلول القلي فوقها. « لا تستعمل ملعقة معدنية لأن المحلول سيجعلها سوداء» ، تلك كانت ملحوظته .

تحول المعجون إلى شكل هلامي بسبب محلول القلي والبطاطا ثم كسر شورتي البيضتين وصبهما وهو يمزج بسرعة منحنياً فوق المعجون الذي تحول لونه إلى أصفر باهت « تحسس الجرة » أمرني شورتي بذلك ووضعت يدي حولها لأسحبها بسرعة «أنت محق فهي ساخنة من أثر المحلول.» ثم استمر في الحديث « الآن تدري أنها ستحرق وأنا أمشط شعرك . أنها مؤلمة جداً ولكن كلما تحملتها لفترة أطول كلما زاد اعتدال شعرك.»

طلب مني شورتي أن أجلس ثم ربط المريلة حول عنقي بحزم ومشط شعري ثم ملأ يده من برطمان الفازلين ودلك بها شعري ورأسي بشدة كما دهن مؤخرة عنقي وأذني وجبهتي بشدة. حذرني شورتي قائلاً : « عندما أبدا في غسل شعرك تأكد أن تقل لي إذا شعرت بحروق في أي نقطة » ثم غسل يديه ووضع القفازات وربط مريلته هو وأضاف : « تذكر أن أي نقطة من الكونجولين نتركها ستحدث جرحاً في رأسك».

في البداية شعرت بدفء الكونجولين ولكن رأسي اشتعل بعد ذلك . ضغطت على أسناني وأنا أقبض على طاولة المطبخ . كان المشط وكأنما أسنانه تخرق جلد رأسي . أدمعت عيناي ورشحت أنفي . لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك فقفزت إلى حوض الغسيل لاعناً شورتي بكل اسم أتى على لساني عندما بدأ شورتي يرش شعري بالبخاخة ويدلك شعري برغوة الصابون . كان يضع الصابون ثم يغسل شعري بالماء ويكرر ذلك ربما عشر أو اثنتا عشرة مرة وكل مرة يقلل من الماء الساخن إلى أن برد الماء مما خفف عني بعض الشيء .

« هل تشعر بحرقان في أي نقطة ؟ ».

« لا » . قلت ذلك وأرجلي ترتجف .

« تمهل في جلستك . أعتقد أن كل شيء على ما يرام».

عادت النار إلى رأسي حينما بدأ شورتي يجفف شعري بمنشفة سميكة وهو يدلك . « مهلاً ، يا صاح، مهلاً !» استمررت أنا في الصراخ . « المرة الأولى دائماً هي أصعب مرة . ستعتاد عليها بعد فترة وجيزة. لقد تحملتها بصبر جميل يا بن البلد والآن عندك

مكوة كونك جيدة » . عندما سمح لي شورتي بالوقوف والنظر في المرآة رأيت شعري نازلاً في سبيبات رطبة متموجة وكان رأسي ما زال مشتعلاً ولكن بدرجة محتملة . لف شورتي المنشفة حولي ثم بدأ يمسح شعري بالفازلين مرة أخرى.

كنت أشعر به وهو يمشط شعري إلى الخلف بالمشط الكبير مرة ثم بالصغير . بعد ذلك أحضر موسي وبدأ يستعملها برقة في رقبتي من الخلف ثم أخيراً جعل لي سالفين قصيرين .

أول نظرة في المرآة جعلت الألم يختفي . لقد رأيت شعوراً مكوية وجميلة قبلاً ولكن عندما يكون الشعر المكوي على رأسك أنت لأول مرة فيا للتحول العجيب بعد حياة من الشعر المجعد .

رأيت صورة شورتي في المرآة من خلفي وكلانا مبتسم وسابح في العرق وعلى رأسي هذه الخصلة الناعمة من الشعر الأحمر – أحمر جداً – معتدلاً كشعر أي رجل أبيض.

يا للسخف ويا للغباء ! أن أقف أمام المرآة مزهواً بشعري لأنه صار كشعر البيض. أقسمت يومها أني لن أبقى بدون كي شعري في المستقبل وكذلك كنت لسنين طويلة قادمة.

تلك كانت خطوتي الأولى الكبرى نحو إذلال النفس. أن أتحمل كل ذلك الألم وأن أحرق لحمي فعليًّا فقط كي أتشبه بالبيض . انضممت إلى تلك الجمهرة الكبيرة من الزنوج في أمريكا الذين تم غسل مخهم كي يؤمنوا بأن الجنس الأسود جنس أدنى منزلة وأن الجنس الأبيض أعظم إلى درجة أنهم يمسخون ويشوهون أجسامهم التي خلقها الله ليصبحوا في « أحسن تقويم » بمقاييس الرجل الأبيض.

انظر حولك اليوم ! انظر في كل مدينة صغيرة و كبيرة ، في البقالات الصغيرة أو في ردهة فندق والدروف استوريا وستجد زنوجاً بشعر مكوي « كونك ». ستجد نسوة سوداء يرتدين شعوراً مستعارة حمراء ، وخضراء وبنفسجية وقرمزية وشعور شقراوات بشعر بلاتين . ذلك أكثر سخفاً من أي كوميديا رخيصة . سيجعلك ذلك تتساءل هل فقد الرجل الأسود حاسته وهويته ؟ هل فقد الإحساس بنفسه ؟

سترى رجالاً بشعر مكوي ومحروق بين ما تسمى « بالطبقة العليا » وسط الزنوج – ومع أني لا أحب أن أذكر ذلك – بين كثير من الفنانين الزنوج . أحد الأسباب التي كانت تجعلني أعجب ببعضهم على نحو خاص، هي أن ذلك البعض – مثل ليونل هامبتون وسيدني بواتيه – تركوا شعرهم على طبيعته وحاربوا ليصلوا القمة في فنهم .

لا أدري أيهما أكثر احتقاراً للنفس ومدعاة للخجل – الشعور المحروقة والمكوية

على رأس من يسمون « بالطبقة العليا » و« الطبقة الوسطى » المفترض فيهم المعرفة ، أم التي على رأس الطبقات الفقيرة المسحوقة الجاهلة من بين السود ؟ أقصد من يتقاضون أدنى الأجور قانوناً ويسكنون في الجيتو مثلي عندما كووا شعرهم لأول مرة . هذا النوع الأخير هو الذي يضع منديله على رأسه مثل « العمة جمايما » في الإعلانات والذين يحاولون أن يطيلوا من عمر الشعر وهو مكوي بين كل زيارتين للحلاق ولا يرفعون المنديل عن رأسهم إلا في مناسبات خاصة ليتباهوا بشعرهم . السخرية في الموضوع هي : أنني لم أسمع أبداً امرأة بيضاء أو سوداء تبدي إعجاباً بشعر مكوي . حتمًا إن المرأة البيضاء عندما تخرج مع شاب أسود لا تفكر بشعره . لكنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لامرأة سوداء تفخر بجنسها أن تمشي في الشارع مع رجل أسود شعره مكوي بتلك الطريقة – أن علامة خجله هي أنه أسود.

عندما أقول هذا الكلام فأنا أقصد نفسي أولاً لأنه لم يكن هنالك زنجي أخلص للكي مثلي . إني أقول لأي رجل أسود يكوي شعره وأية امرأة سوداء تضع شعراً أبيض مستعاراً ، أنهم لو أعطوا المخ الذي في رؤوسهم نصف ما يعطونه لشعورهم من اهتمام لكانوا أحسن حالاً بألف مرة مما هم عليه .